

دراسة تناسب السياق في التقابلات الدلالية في الجزء الثلاثين من القرآن الكريم

محمد صالح شريف عسكري*

سودابه مظفري**، بهمن هاديلو***

الملخص

يتناول هذا المقال موضوع التقابل الدلالي في الجزء الثلاثين من القرآن الكريم من خلال أبعاده الوظيفية، وتناسبه مع السياقات المختلفة التي أحاطت به؛ بما أنّ القرآن الكريم منزل من الله لهداية الناس، وأنّ الهداية تتطلب تنوع الخطاب، واستخدام الأساليب البيانية، وفقاً لمقتضيات أحوال المخاطبين، والظروف الزمكانية. ولما كان أسلوب التقابل الدلالي نوعاً من الأساليب البيانية، وله القدر الأوفى في التأثير على المتلقي، والدور الفعال في عرض المفاهيم؛ تعويلاً على قول المحققين «الأشياء تُعرف بأضدادها» ونظراً لاستخدامه في أغلب السور المباركة جاء هذا البحث ليكشف عن مدى استخدامه في الجزء الثلاثين، وتناسبه مع السياقات التي اشتملت عليه؛ وللإجابة على الأسئلة المتعلقة بأنواعه المستخدمة، وتناسبه السياقي، ومعطياته الدلالية. ومن النتائج التي أفرزها البحث: أنّ هذا الجزء المبارك، قد اشتمل على التقابل الدلالي، و احتوى على عدد من أنواعه، كما خلّص إلى أنّ جمال التقابل الدلالي لا يقف على الصورة اللفظية بل له

* الأستاذ المشارك في فرع اللغة العربية و آدابها، بجامعة الخوارزمي، طهران، إيران، Sharif-asksri@khu.ac.ir

** الأستاذة المساعدة في فرع اللغة العربية و آدابها، بجامعة الخوارزمي، طهران، إيران، Mozaffari-arabic@yahoo.com

*** الأستاذ المساعد في فرع اللغة العربية و آدابها، بجامعة العلوم و معارف القرآن الكريم (الكاتب المسؤول)، قم، إيران،

hadiloo63@gmail.com

تاريخ الوصول: ١٣٩٥/٧/١٧، تاريخ القبول: ١٣٩٥/٩/٢٨

قيمتها المعنوية في النص و أنّ هذا الأسلوب يتناسب مع حاجة الإنسان إلى معرفة الحقائق بأجلى صورها، لأنّ التقابل الدلالي يعرض الأمر بصورتين مختلفتين أمام البصر والبصيرة، وكان للتناسب السياقي سهم وافر في ذلك. أيضاً تشير نتائج هذا البحث أنّ التقابل ليس فناً تجريدياً لذاته وإنما جزء من بناء النص له أهدافه و دلالاته و فاعليته و لا سيّما في النص القرآني حيث وظّف لخلق الصور و الموسيقى و تداعي المعاني و اغراء المتلقي.

الكلمات الرئيسية: القرآن الكريم؛ الجزء الثلاثون؛ التقابل الدلالي؛ التناسب السياقي.

١ . المقدمة

إنّهُ مما لا شكّ فيه بأننا لن نجد سبيلاً إلى معرفة مضمون القرآن، وفهم معانيه فهماً جيّداً صحيحاً إلاّ بعد معرفة معاني مفرداته وجملة لغوياً وبلاغياً. والقرآن الكريم كان -وسيطلاً- معيناً لا ينضب أبداً للإعجاز البياني والجمال الأدبي بأبعاده المختلفة، ومهما توالى الدراسات البلاغية و تعاضدت الجهود في سير أغواره لغته و بلاغته، لا تصل إلاّ إلى نزيّر يسيرٍ منه.

إنّ التقابل أسلوب في التعبير يقوم على مبدأ إقامة تضادّ بين الألفاظ والمعاني والأفكار والصور تحقّقاً لغايات بلاغية وقيم فكرية... و يعد من الأساليب البارزة التي يجيء الاعتماد عليها عن قصد، وله حضور مميّز و هيمنة فائقة على المتلقي. و بعدُ فهو من أكثر البنى انتشاراً في الخطاب الأدبي بصورة عامة، فضلاً عن القرآن الكريم، حتى يمكن القول بأنّه لا يخلو منه نص أدبي رفيع، يوظف في سياقه التقابل لإنتاج الدلالة. (عبدالمطلب، ١٩٩٧: ٣٥٤)

وللتقابل أنواع عديدة من اللفظ وصور مختلفة من التعبير وردت في دراسات القدامى والمحدثين، غير أنّ الحديث عن التقابل وأنواعه يقودنا إلى الحديث عن أسماء وتراكيب لمفاهيم تكاد تصب في مجرى واحد، فهي جميعاً -بالرغم من فروقها الدلالية- تتحدث عن اجتماع شيئين أو مفهومين متقابلين كالأبيض والأسود، والحق والباطل، والأول والآخر.

ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا أنّها جميعاً تلتقى عند هدف واحد، ألا وهو الكشف والبيان عن أمور باتت خفية على الأبصار والبصائر؛ كما لا نبالغ إذا قلنا أنّ هذا الأسلوب البياني البديع الذي ندعوه «التقابل الدلالي» بأنواعه المختلفة كان ولا يزال السيف القاطع الذي يشهره الأدب الرفيع ومنها الأدب القرآني، وهو أرفعها، كلما احتدمت معارك الهدى والضلال والحق والباطل؛ لما له من فاعلية عالية في إجلاء الحقائق وتثبيت الحقوق خاصة إذا أمعن النظر في تناسب السياقات التي احتوت التقابلات الدلالية. باعتبار أنّ القرآن الكريم بعضه يفسر بعضاً؛ ولأنّ هذا الأسلوب البياني الساطع - وهو السبب الأهم - يتناغم مع الفطرة البشرية السليمة العطشى الى معرفة الحقائق باجلى صورها، وأوضح معانيها ومصاديقها. فالفطرة البشرية النقية، توذّ الإنصات الى كل لغة وصوت يجلي لها الحقيقة، ويهب لها الوضوح.

ولأجل هذا أحبّ الانسان ضوء الشمس ونور الصباح و الليلة المقمرة التي تبدد الظلام وتزيح الخفاء؛ ولأجل هذا أيضاً نجد في القرآن الكريم، كتاب الله العزيز، عناية بالغة بأسلوب التقابل الدلالي، حيث تكاد أن لا تخلو منه سورة من سوره المباركة، لأنّ القرآن المجيد تكفل بمداية البشرية، منذ بزغ فجر الاسلام الى قيام الساعة، وحتى يرث الله الأرض ومن عليها، فكانت العناية بكل أسلوب ناجع وطريقة مثلى. وتأسيساً على هذه الرؤية الواضحة وقع الاختيار منا لدراسة التقابل الدلالي في الجزء الثلاثين من القرآن الكريم.

ولهذا - حسب علمنا - حظى مبحث التقابل الدلالي لدى الباحثين، باهتمام بالغ، وبصورة خاصة في القرآن الكريم، وظهرت حوله دراسات قيمة؛ جديرة بالتقدير. وهذه المقالة جهد متواضع يراد به الكشف عن التقابل الدلالي في الجزء الثلاثين، ضمن سياقتها المختلفة، آملين أن نقف في ثناياها على أنواعه ومجالات توظيفه، ومعطياته، ومعرفة جانب من جمالياته. وتحاول هذه الدراسة، بالاعتماد على المنهج الوصفي - التحليلي، معالجة السؤالين التاليين:

١. كيف تتسبب التقابلات المستخدمة التناسب السياقي في الجزء؟

٢. ماهو معطيات التقابل وفاعليته في الجزء؟

الفرضية التي يتمحور حولها هذا البحث هي أنّ التقابل الدلالي له دور هام في إيجاد التناسب السياقي في الجزء الأخير و أيضاً للتقابل الدلالي فاعليته الخاصة به كخلق التصوير، والموسيقى، تداعي المعاني و اغراء المخاطب. ويتناول البحث التقابل في الجز الثلاثين من القرآن الكريم، ويهدف إلى الكشف أنواع التقابل فيه و معرفة التناسب السياقي في تقابلات الجزء و يسعى إلى الإطلاع على معطيات التقابل و فاعليته في الجزء.

٢. خلفية البحث

ظهرت بحوث قيمة حول التقابل الدلالي في مجالات عديدة من نصوص الادب العربي، وخاصة في سور القرآن الكريم، باعتباره النص الأسمى؛ غير أنّ هذه البحوث القيمة لم تفرد للسياق و تناسبه جانباً خاصاً به، فكان منها كتب ومقالات:

الكتب:

التقابل الدلالي في القرآن الكريم، تأليف منال صلاح الدين الصفار؛ والتقابل الجمالي في النص القرآني، للدكتور حسين جمعة، ورسالة ماجستير، عنوانها «التقابل الدلالي في القرآن الكريم (الاجزاء العشر الاخيرة نموذجاً)» أعدتها مريم زارع في جامعة الخوارزمي بطهران سنة ١٣٩٤ هـ.ش.

الرسائل:

أما من الرسائل التي تطرقت إلى التقابل في القرآن فهي رسالة تحت عنوان «التقابل في الربع الأخير من القرآن الكريم-دراسة اسلوبية-» بقلم الطالب عماد عز الدين و بإشراف الدكتور حجاج معمر في جامعة الحاج لخضر باتنة.

أما المقالات فهي:

-«التقابل اللفظي في القرآن الكريم»، للدكتور يونس عبد مرزوك، نشرته مجلة جامعة الأنبار بالعراق.

- «التقابل المكاني الأخرى في سورة الواقعة» مقالة للكاتب أسماء سعود أدهام الخطاب، طبعت في مجلة آداب الرفادين ٢٠٠٧م.
- «التقابل في الصحيفة السجادية وأثره في الأنسجام» بقلم مجيد محمدي بايزيدي وزميليه، نشرته مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها، بايران حريف ١٣٩٢.
- وقبل أن ندخل إلى صلب الموضوع، من المناسب أن نلقي الضوء على المعنى اللغوي و الإصطلاحي للتقابل الدلالي:

٣. مفهوم التقابل

١.٣ في اللغة

- «المقابلة: المواجهة والتقابل مثله» (جوهرى، ١٤٠٤: ج٥/١٧٩٧).
- ورد منه في القرآن الكريم بالمعنى اللغوي في قوله تعالى في وصف أهل الجنة: «إخواناً على سُرُرٍ متقابلين» (الحجر: ٤٧).
- يقول الخليل (ت ١٧٥ هـ): «و القَبيل: الطاقَة، تقول: لا قبل لهم، و في معنى آخر هو التلقاء، تقول: لقيته قبلاً أي مواجهة» (الفراهيدي، بلاتا: ج٥/١٦٦).
- وفي المحكم و المحيط الأعظم في اللغة يقول ابن سيده (ت ٤٥٨ هـ): «وقابل الشيء بالشيء مقابلة، وقبالا: عارضه... و تقابل القوم: استقبل بعضهم بعضاً» (المرسى، ٢٠٠٠: ج٦/٤٢٩).
- و في لسان العرب: «المقابلة: المواجهة، و التقابل مثله. وهو قبالك وقبالتك أي تجاهك» (ابن منظور، ١٩٩٧: ج١١/٥٤٠). مما تقدم عرضه، يتبين بأن معنى كلمة «التقابل» في إطاره العام هو المواجهة.

٢.٣ في الإصطلاح

التقابل أو المقابلة في إصطلاح علماء البلاغة: أن يؤتى في الأسلوب بمعنيين أو أكثر، ثم يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب، موفراً أقصى طاقات التضاد الدلالي. ويدل على ذلك أيضاً وزن التفاعل الذي يدل على المشاركة بين اثنين. وفي ذلك يقولون:

أ- أبو هلال العسكري(ت٣٩٥هـ)

المقابلة «هو إيراد الكلام، ثمّ مقابلته بمثله في المعنى و اللفظ على جهة الموافقة أو المخالفة» (العسكري، ١٩٨٦: ٣٣٧).

ب- سراج الدين السكاكي(ت٥٦٦هـ):

ويعتبر المقابلة من المحسنات المعنوية، فقال في (مفتاح العلوم): «وهي أن تجمع بين شيئين متوافقين أو أكثر وبين ضديهما»(السكاكي، بلاتا: ١٧٩).

ج- الخطيب القزويني(٥٣٩هـ):

وقد أدخلها في عموم المطابقة و عرفها بقوله: «أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو معان متوافقة ثمّ بما يقابلها أو يقابلها على الترتيب و المراد بالتوافق خلاف التقابل» (القزويني، بلاتا: ١٩٣).

د- ابن رشيق القيرواني:

عرف القيرواني المقابلة بقوله: «و أصلها ترتيب الكلام على ما يجب فيعطي أول الكلام ما يليق به أولاً و آخره ما يليق به آخراً، ويأتي في الموافق بما يوافقه و في المخالف بما يخالفه وأكثر ما تجيء المقابلة في الأضداد فإذا جاوز الطباق ضدّين كان مقابلة» (القيرواني، ١٩٧٢: ج ٢/٥).

والتقابل عند المحدثين:

إنّ أسلوب التقابل كما رأيناه عند القدماء لم يخرج عندهم عن إطار الطباق و المقابلة، وإلى ذلك يذهب جمع من المحدثين، منهم الدكتور أحمد الجنابي الذي يعرفه بأنّه: «كل كلمتين تحمل إحداهما عكس المعنى الذي تحمله الأخرى» (العبيدي، ١٩٨٩: ٥٠).

أما مصطلح «التقابل الدلالي» فهو مصطلح قديم، جديد. قديم لوجود مضامينه، عند المختصين؛ وجديد، لتعريفه ورسم حدوده عند المحدثين من خلال وجوده في اللغات الأخرى. إنَّ دراسة التقابل من الناحية الدلالية، ظهرت أوّل مرة في العصر الحديث عند الغربيين، حيث تعتبر دراسة «أوجدن» للتقابل سنة (١٩٣٢) من أهم المحاولات المبكرة في هذا المجال، تبعثها دراسات غربية أخرى مهّدت الطريق ليدرس اللغويون العرب هذه الظاهرة، (أبو خضر، ٢٠٠٤: ٣).

و كانت أولى دراساتهم في هذا المجال بعنوان «ظاهرة التقابل في علم الدلالة» و فيها يؤكّد صاحبها «أحمد نصيف الجنابي» أنّ له الريادة في وضع مصطلح «التقابل» حيث يقول: «بعد قراءة في كتب الدلالة العربية القديمة و الحديثة، لم أجد أحداً بحث ظاهرة التقابل في أي كتاب من الكتب الدلالية. وأستطيع أن أقول مطمئناً: إنّ مصطلح التقابل هو من وضعي» (الجنابي، نفس المصدر: ٥). و التقابل يعتبر في الدراسات الدلالية الحديثة ظاهرة مستقلة كالترادف و غيرها» (المصدر نفسه: ١٢) والذي نخلص إليه من هذا كلّه أنّ ما سمّي بطباق السلب لا يدخل في مفهوم المقابلة (الجنابي، بلاتا: ١٧).

٤. الدلالة

علم الدلالة أطلقت عليه عدة أسماء في اللغة الإنجليزية أشهرها هي semantics، أمّا في اللغة العربية فبعضهم يسميه علم الدلالة، وبعضهم يسميه علم المعنى (احمد مختار، ١٩٨٨: ٢٠٩). ويعرفه بعضهم بأنّه «العلم الذي يدرس المعنى» أو «ذلك الفرع من علم اللغة الذي يتناول نظرية المعنى» أو «ذلك الفرع الذي يدرس الشروط الواجب توافرها في الرمز حتى يكون قادراً على حمل المعنى» (احمد مختار، ١٩٨٨: ١١).

أما الدلالة عند البلاغيين، فهو «كون الشيء بحيث يلزم من العلم به العلم بشيء آخر، والأوّل الدالُّ و الثاني المدلول» (التفتازاني، بلاتا: ٤).

٥. التقابل الدلالي في الجزء الثلاثين، في رحاب التناسب السياقي

١.٥ التقابل الإصطلاحي

ويراد به التقابل أو المقابلة عند البلاغيين و هو: وجود لفظتين تحمل إحداها معنى ضد المعنى الذي تحمله الأخرى.

و من أمثلة هذا التقابل في الجزء الثلاثين هي:

١. « وَالشَّفْعُ وَالْوَتْرُ » (الفجر: ٣)

تم التقابل بين «الشفع و الوتر». الشفع ضمُّ الشيء إلى مثله، يقابله الوتر و هو في العدد خلافُ الشفع. قيل الشفعُ المخلوقاتُ من حيث إنّها مُركباتٌ. (الراغب الأصفهاني، دت: ج ١/ ٤٥٧) والوتر هو الله من حيث إنّ له الوحدَةَ من كلِّ وَجِهٍ، وقيل الشفعُ يوم النحر من حيث إنّ له نظيراً يليه، والوتر يوم عرفة (الراغب الأصفهاني، دت: ج ١/ ٤٥٧).

فالتناسب والتناسق محسوس بين الأقسام المختلفة التي بدأتها السورة المباركة، حيث شملت الزمان الثابت (والفجر، وليالي عشر) ثم القسم بالشفع والوتر، إذ لا شئ في الوجود الآ شفع أو وتر، ثم القسم بالزمن المتحرك (والليل إذا يسر)، وهذه كلها تستحضر قدرة الخالق الجبار - جلّ جلاله- ثم أنّ هذه الأقسام التي كادت أن تشمل كل شئ تناسب مع السؤال التالي (هل في ذلك قسمٌ لذي حجر) وهذا التناسب نفسه، هو الذي يهيئ المخاطب لتقبل المعطيات العظيمة التي زحرت بها سورة الفجر.

٢. « وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ » (الليل: ١٣)

حينما نتأمل في هذه الآية الشريفة نجد التقسيم والتأخير بين العناصر المتقابلة، ونسأل لأي سبب قدّم لفظ الآخرة على الأولى؟ مع أنّ (الأولى) يجب أن تقدم على (الآخرة) وفقاً للترتيب الزمني.

والتقديم والتأخير من مجالات السبر البلاغي في معاني النحو، وأمّا توظيف هذا النوع من المقابلة في القرآن الكريم، فلأسباب سياقية عديدة؛ أهمّها أن يكون التقسيم لأجل العناية

بالمقدّم والإهتمام به، أو أن يكون مراعاة للمقام الذي يستدعي ذلك، طلباً للتناسب بين اللفظ والمعنى.

وقد بلغ القرآن الكريم في هذا الفن الذروة في وضع الكلمات الوضع الذي تستحقه في التعبير بحيث تستقر في مكانها المناسب. ولم يكتف القرآن الكريم في وضع اللفظة بمراعاة السياق الذي وردت فيه بل راعي جميع المواضع التي وردت فيها اللفظة ونظر إليها نظرة واحدة شاملة في القرآن الكريم كله فنري التعبير منسقا متناسقا مع غيره من التعبيرات كأنه لوحة فنية واحدة مكتملة متكاملة.(السامرائي، ٢٠٠٦: ٥٣)

وقد تم تقديم «الآخرة» على «الأولى» في هذه الآية؛ لأنها تتناسب وقوله تعالى: «فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى» (الليل: ٥-٧) وقوله تعالى: « وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى» (الليل: ٧-١٠)، ذلك أن المعطى المتقى يريد الآخرة فيقول الله له: إن لنا الآخرة، والبخيل المستغني يريد الدنيا، فيقول الله له: إن لنا الدنيا. فمن أرادهما أو أراد إحداهما فليطلبهما منه تعالى وليسلك سبيل طاعته... وقدم (الآخرة) لتقدم طالبها، و هو قوله: « فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ... » وأخّر (الأولى) لتأخر طالبها و هو قوله: «وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ... » (السامرائي، ٢٠٠٢: ج ١ / ١٣٨).

٣. «عَلِمْتُ نَفْسٌ مَا قَدَّمْتُ وَأَخَّرْتُ» (الإنفطار: ٥).

وقع التقابل الاصطلاحي بين فعلى «قَدَّمْتُ و أَخَّرْتُ».

والشواهد التي مرت من تقابل التضاد، و من خصائصه هي:

(أ) أن نفي أحد الأزواج المتضادة يتضمن تأكيد الآخر، و كذلك تأكيد أحدهما يتضمن نفي الآخر.

(ب) يقوم على ثنائية التضاد؛ فهو يقع بين طرفين نقيضين فقط، لا يقابل

بثالث(لاينز، ١٩٨٠: ٩٥-١١٠).

٤. « وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ. وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِقَتْ» (التكوير: ١٢-١٣).

التقابل في الآية وقع بين كلمتي «الجحيم والجنة»، الجحمة شدة تأجج النار ومنه الجحيم (الزهري ١٠٢\٤). الجنة الحديقة ذات النخل و الشجر و البستان و دار النعيم في الآخرة (الراغب الاصفهاني ٩٦).

كما نشاهد في الآية الشريفة، بنية التقابل فيها تكون على طريق التضاد المعنوي دون اللفظي، و هو يتشكل من كلمتين، بحيث تقابل فيه إحداهما الأخرى من جهة التضاد في المعنى. إنَّ الطرف الأول من التقابل في الآية الكريمة كما ذكرنا هو كلمة «الجحيم»، و الطرف الثاني منه هو كلمة «الأرض»، والعلاقة التي نلاحظها بينهما هي علاقة التنافر و ليست علاقة التضاد.

تتشكل بناء التقابل في هذه الآية من مقابلين و سياقين، فالطرف الأول من التقابل يناسب كلمة «الجحيم» والطرف الثاني منه يناسب كلمة «الجنة» - السياق الأول الذي ضمَّ كلمة «سُعِّرَتْ»، والسياق الثاني «أزْلَفَتْ».

٥. «إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى» (الأعلى: ٧).

كما نرى في الآية الشريفة، تمَّ التقابل بين الجهر و ما يخفى، و فالجهر اسمٌ و يخفى فعلٌ، لكن «ما» قبل يخفى موصولة، ويؤوَّل بالمصدر فيكون تقديره يعلم الجهر و المخفي. والجهر في اللغة، يقال لظهور الشيء بإفراط حاسة البصر والسمع (الراغب الاصفهاني، نفس المصدر: ج ١ / ٢٠٨).

والخفي يقال: خَفِيَ الشيء، خُفِيَ اسْتَرَّ، والخفاء ما يستتر به (المصدر نفسه: ٢٨٩). و جديرٌ بالذكر بأنَّ الخلاف بين كلمتي الجهر و يخفى، يكون في المعنى الدلالي المنطوي في الإسم و الفعل. الإنسان يخفي دائماً أعماله من الآخرين و الدوام هو المعنى الذي في الجملة الفعلية. وجمالية هذا التقابل تظهر في تناسبه مع الفطرة البشرية التي فطرها الخالق العالم.

٦. «ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا» (الأعلى: ١٣).

تمَّ التقابل الإصطلاحي بين فعلى «موت و يحيى» والتقابل بين الحياة و الموت يمثل علاقة دلالية، و من جانب آخر يمثل آصرة وجودية، محسوسة لدى المخاطب الأشقى الذي لا يتعظ.

٧. « إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا » (الشرح: ٦).

تمَّ التقابل بين العسر و هو ضنك العيش و السير هو ضدَّ العسر بمعنى الفرج. وجماليته وفاعليته تظهر في تناسبه مع طبيعة الأنسان، الذي يتأرجح بين العسر واليسر، مدة عمره، شاء أم أبى؛ ليكون هذا التقابل الذي يعده اليسر بعد العسر بلسماً، لما يعاني من تباريح العسر؛ خاصة إذا كان هذا الوعد صادقاً، وهو صادق لا محالة؛ لأنَّه من لدن الخالق القادر العلام. ولهذا كان القرآن الكريم شفاءً للصدور وذكراً مُطمئناً للنفوس.

٨. « وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى » (الضحى: ٧).

في الآية الشريفة، تمَّ التقابل بين « ضالًّا و هدى»، الضلالُ العُدُولُ عن الطَّريق المستقيم و يُضادَّةُ الهداية. ويقال الضلالُ لكلِّ عدولٍ عن المنهج عمداً كان أو سهواً، يسيراً كان أو كثيراً (الراغب الاصفهاني، نفس المصدر: ٢٩٧). التقابل بين الهدى والضلال يمثل علاقة دلالية و آصرة إيمانية.

٩. « وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ » (الطارق: ١١-١٢).

في هذه الآية الشريفة التقابل وقع بين «السماء و الأرض» لكن بنية التقابل فيها التضاد المعنوي دون اللفظي، و هو تقابل يتشكل من كلمتين، بحيث تقابل فيه إحداها الأخرى من جهة التضاد في المعنى، وهذا التقابل إمَّا أنَّه يتشكل من تضاد إحد الكلمتين مع معنى الكلمة الأخرى، أو من تضاد معنوي الكلمتين معاً. ومع تدقيق النظر في الآية المذكورة نجد أنَّ التقابل فيها القائم على الجمع بين معنوي الكلمتين. كما ذكرنا آنفاً، إنَّ الطرف الأول من التقابل في الآية الكريمة هو كلمة «السماء» و الطرف الثاني منه هو كلمة «الأرض»، والعلاقة التي نلاحظها بينهما هي علاقة التنافر وليست علاقة التضاد، وهذه الأخيرة تحدث بين الكلمة الأولى الذي هو «فوق» ومعنى الكلمة الثانية هو «تحت». و التناسب في الآية

المباركة قائم بين السماء التي منها الرجوع، والأرض التي منها الصدع، فكل منهما لازم لدورة الحياة، والمشهد المتقابل يجسد للعيان آية من آيات الله للناس، كي يزدادوا إيماناً مع إيمانهم. وهذا هو من جملة عطاء تقابلات القرآن الكريم؛ لأنه كتاب هداية.

١٠. «فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ»

(القارعة: ٦-٩).

الحِفَّةُ والحِفَّةُ: ضِدُّ الثَّقَلِ والرُّجُوحِ، يكون في الجسم والعقل والعمل. خَفَّ يَخْفُ خَفًّا وخِفَّةً: صار خَفِيفًا، فهو خَفِيفٌ وخُفَافٌ، بالضم وقيل: الخَفِيفُ في الجسم، والخُفَافُ في التَّوَقُّدِ والذِّكَاةِ (ابن منظور: ج ٩/٧٩).

معنا خفَّ في هذه الآية إشارة إلى قلة الأعمال الصالحة. في الآية الشريفة تمّ التقابل بين «خفّت وثقلت»، ويتشكل بناء التقابل في هذه الآية من مقابلين و سياقين، بحيث أنّ المقابل الأول تبعه السياق الأول و بعده المقابل الثاني تبعه السياق الثاني. إنّ الطرف الأول من التقابل هو يناسب كلمة «ثقلت» وبينه و بين الطرف الثاني منه مناسبة كلمة «خفّت» — السياق الأول الذي هو: «فَهُوَ فِي عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ»، وينتهي البناء بالسياق الثاني «فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ».

و ايراد التقابل هنا في الآيات المذكورة لم يكن اعتباطيا إنما كان عن دراية و علم من الله تعالى لما لهذا الأسلوب من أثر في بيان المعنى المراد. على سبيل المثال التقابل بين «ثقلت و خفّت» له أثر ملحوظ في اىصال المعنى، وهو تنبيه القوم وتحذيرهم، بأنّ طاعة الله وشراعه تستعقب بالنعم الدائمة و العيشة الراضية، و أنّ معصيته يعقبها عقاب و عذاب.

و إنّ قيمة التقابل البلاغية من هذا النوع لا تعني الاكتفاء بمجرد الإتيان بلفظين متقابلين معنى، و إنما القيمة البلاغية تكمن في الإتيان بنوع من أنواع البديع الذي يشاركه البهجة و الرونق.

٢.٥ تقابل الجملة

يتحدّد هذا التقابل من خلال مقابلة عناصر بنائية لغوية، و ترتيب تعتمد على علاقات منطقية تقع في إطار التّضاد أو المخالفة، و هذه العلاقات بطبيعة الحال لا تقف وحدها فاعلية في البنية التقابلية و إنما يضاف إليها رصيد كبير من المعاني و المدلولات التي تنتجها عناصر البنية التقابلية (عبدالمطلب، بلاتا: ٤٧).

لهذا النمط من التقابل الدلاليّ فاعلية، و قدرة كبيرة على إبراز المواقف المتعكسة، و المتناقضة من خلال دلالات الجمل و التراكيب الناتجة عن المادة اللغوية (الدلالات) و المنبثقة من المستوى المعنوي أو المضمون العام، و هذه الدلالات الناتجة ليست هي المعاني التي يكشف عنها المستوى السطحي للسياق، و إنما هي المعاني العميقة المختفية وراءه (القرعان، بلاتا: ١٠).

غالباً ما يقع هذا النوع في نطاق الجوانب العقيدية والفكرية والقيم الدينية الإسلامية وما يصادفها ويقابلها من قيم جاهلية ضالّة.

و من هذا القبيل، جاء في الآيات التالية:

١. «وَ اللَّيْلُ إِذَا يَغْشَىٰ. وَ النَّهَارُ إِذَا تَجَلَّىٰ» (الليل: ١-٢)

الليل حين يغشى البسيطة، و يغمرها و يخفيها. و النهار حين يتجلى و يظهر، فيظهر في تجليه كل شيء و يسفر. و هما آتان متقابلان في دورة الفلك، و متقابلان في الصورة، و متقابلان في الخصائص، و متقابلان في الآثار (قطب ١٤١٢ هـ: ج ٦ / ٣٩٢١) و في هذه الآيات بينات ليس الجمال بين مطابقة الليل و النهار بل الجمال و القيمة الفنية تكمن في غشيان الليل مقابل تجلى النهار، و ما يحمل المعنى الاول من شمولية و تناسب في غشيان العيون، الذي يؤدي إلى النعاس فإلى النوم، مقابل انجلاء هذا الليل و انبلاج نهار يجلو الظلمة و يدعو إلى العمل و يدفع إلى الحركة و الحياة. (الرازي، ١٩٩٠: ج ١٣ / ١٧٩).

٢. «إِنَّ الْأُبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ. وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ» (الانفطار: ١٣-١٤) التقابل بين

جملي «إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ» و«إِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ» بيّن وواضح. بأنّه قابل بين الأبرار و النعيم و الفجار والجحيم.

من الأساليب القرآنية المندرجة تحت مسمى باب التقابل هو أسلوب الترغيب والترهيب، وهو أسلوب بارز في القرآن. أسلوب الترغيب والترهيب واضح في الآيتين فبعد أن ذكر سبحانه مصير الأبرار يوم القيامة، أتبع ذلك بذكر مصير الفجار.

٣. « فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى» (الليل: ٥-١٠).

أتى أولاً بالإعطاء، والإتقاء، والتصديق، واليسر، ثم أتى بما يقابلها على الترتيب: البخل والاستغناء، والتكذيب والعسر.

و وجه مقابلة « الاستغناء» للاتقاء: أن معنى «استغني»، زهد فيما عند الله فلم يراقبه، ولم يتقه، أو معناه: استغنى بمتاع الدنيا عن الجنة فلم يتق الله في عمله، فيكون الإستغناء حينئذ مستلزماً لعدم الاتقاء المقابل للاتقاء. وفي هذا دليل على أن المقابلة قد تتركب من الطباق و قد تتركب مما هو ملحق بالطباق كما هنا في المقابلة الاتقاء بالاستغناء، فهو من قبيل الملحق بالطباق (غريب علام، ١٩٩٧: ١٧٢).

٤. «فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ. وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ» (الفجر: ١٥-١٦).

تمّ التقابل بين الجملتين المقابلين و الطرف الأول من التقابل هو جملة «فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ» أي الإنسان إذا ما اختبره ربه بالنعمة، وبسط له رزقه، وجعله في أطيب عيش، فيظن أن ذلك لكرامته عند ربه، يقول: ربي أكرم.

و الطرف الثاني يقابل ذلك المعنى و هو جملة «وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ» أي إذا ما اختبره، فضيق عليه رزقه، فيظن أن ذلك لهوانه على الله، فيقول: ربي أهان.

٥. « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ » (البينة: ٦-٧).

وقع التقابل بين الفريقين الذين كفروا من اليهود و النصارى و المشركين و الذين صدقوا الله و اتبعوا الرسول. إنَّ كلمتي «كفروا و شرّ» في الطرف الأول من المقابلة «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ» يقابلان كلمتي «آمنوا و خير» في الطرف الثاني «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ».

لقد كان التقابل العقدي المحور الأساس و الموضوع الأكثر أهمية بين موضوعات المقابلة القرآنية و لوضع «الحد الفاصل بين الكفر و الشرك من ناحية و بين الإيمان و الحق و الهدى من ناحية أخرى» (حمدة، ١٩٨٥: ١١٥).

وأجمل ما في المقابلة من قيمة بلاغية، تحقيق ما ينتظره السامع عندما ينتهي الطرف الأول من المقابلة. كما نشاهدها في الآيات المذكورة.

٦. فاعلية التقابل في الجزء الثلاثين

مع أنّ التقابل في مذهب أغلب القدماء محسّن بديعيّ، غير أنّ المتأمل في دلالاته و إستخداماته الكثيرة يرى أنّ له أغراضاً أبعد من ذلك، فهو فنّ بلاغيّ، وطريقة في أداء المعنى له آثاره وقيّمته و فاعليته أهمّها هي:

١.٦ التقابل و التصوير: تقابل الصور

يعتبر التصوير في اللغة وجه من أوجه جمالها، وهذا النوع من التعبير عرفه العرب منذ الجاهلية، ويبدو أنّ للبيئة الطبيعية التي عاشوها، ولدرجة الثقافة التي حصلوها، ولواقع الحالة الاجتماعية فيما بينهم، أثر مباشر في عدم اعتمادهم التصوير قاعدة للتعبير وفي عدم إستفادتهم من الخصائص الفنيّة الذاتيّة للغة العربية. (الخالدي، ١٩٨٨: ٢٣)

وكما أنّ التصوير الفني في القرآن الكريم وجه من وجوه جماله فهو أيضا وجه آخر يضاف إلى وجوهه المعجزة. يتحدث سيد قطب في كتابه «التصوير الفني في القرآن» عن الآفاق التي يجب الوصول إليها في دراسة هذا التصوير، منه تلك المقابلات الدقيقة بين الصور التي ترسمها التعبيرات حيث يعمل الخيال في إستحضار هذه الصورة الأخيرة ليقابلها بالصورة المنظورة.

يرتبط التقابل الصوري بالأساليب البلاغية ولا سيما تلك التي تتكئ على تقنيات المشابهة، والإستعارة، والمجاز، و الكناية، فتعمل على توسيع أفق التلقئ وتنشيط الخيال، وشحن الصورة و رفدها فنياً، فضلاً عن خاصية التركيب التي تجلو العلاقة بين الضدين بشكل أعمق عبر عملية التقابل الصوري الذي يعدّ قوة خلاقة داخل النسيج التصويري، ولاسيما من خلال إندغام المتنافرات والمتناقضات، وتمحورها حول الأطراف المتقابلة المتعاكسة ليجعل الصورة أكثر عمقاً و ثراءً (عبد المنعم، بلاتا: ٣٤٨).

في الحقيقة تقابل الصور هو ما يشكل بجملتين تدلُّ أحدهما على صورة مغايرة (نهر، ٢٠٠٧: ٥٥٣) لقد تعددت الصور التي أدّى التقابل بيانها، فكثيراً ما يكون التقابل هو العنصر الأساسي في بناء الصورة.

يبدو أنّ أجمل ما قيل في هذا النوع من التقابل يتجلئ في قوله تعالى حيث يقول: «هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْعَاشِيَةِ. وَجُوهٌ يَوْمئِذٍ خَاشِعَةٌ. عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ. تَصَلَّى نَاراً حَامِيَةً. تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آيَةٍ. لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ. لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ. وَجُوهٌ يَوْمئِذٍ نَاعِمَةٌ. لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ. فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ. لَا تَسْمَعُ فِيهَا لِاَغْيَةَ. فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ. فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ. وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ. وَمَنَارِقُ مَصْنُوعَةٌ وَزُرَابِيٌّ مَبْتُوثَةٌ» (الغاشية: ١-١٦).

في هذا التقابل لا يظهر التقابل من خلال مفردة معينة، بل تظهر من خلال التقابل التركيب الذي ينتج صورة محدّدة الملامح كما نراه في هذه الآيات الشريفة. يقول سيد قطب: إنّ هذه الآيات نموذج للعذاب الحسي والنعيم المادي، متقابلين معاً. إنّ الله تعالى بعد أن افتتح السورة بقوله «هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْعَاشِيَةِ»، أخذ يصوّر شيئاً من مشاهدتها، مشهد أهل النعيم و مشهد أهل العذاب، وهو يعجّل بمشهد العذاب قبل مشهد النعيم؛ فهو أقرب إلى جو «الغاشية» وظلّها (قطب، نفس المصدر: ج ٦ / ٣٨٩٦).

فأما أهل العذاب، فلهم يومئذ وجوه خاشعة ذليلة متعبة مرهقة؛ عملت ونصبت فلم تحمد العمل ولم ترض العاقبة، ولم تجد إلا الخسارة، فزادت مضضاً وإرهاقاً وتعباً، فهي «عاملة ناصبة» عملت لغير الله، وتعبت لدنياها، ثم وجدت عاقبة العمل والكذب. ووجدته في الدنيا شقوة لغير زاد. ووجدته في الآخرة سواداً يؤدي إلى العذاب، وهي تواجه النهاية مواجهة الدليل المرهق، ومع هذا الدل والرهبق والألم (تصلي ناراً حامياً) وتدوقها وتعانيها (المصدر نفسه: ٣٨٩٦).

و في الجهة المقابلة «وجوه يبدو فيها النعيم. ويفيض منها الرضى. وجوه تنعم بما تجد، وتحمد بما عملت. فوجدت عقباه خيراً، وتستمتع بهذا الشعور الروحي الرفيع. .. ومن ثم يقدم القرآن هذا اللون من السعادة على ما الجنة من رخاء ومتاع، ثم يصف الجنة و مناعها المتاحة لهؤلاء السعداء (في جنّةٍ عاليةٍ) .. وللعلو في الحس وإيقاع خاص. (المصدر نفسه: ٣٨٩٧)

«أَمَّا مَنْ أُوِّيَ كِتَابَهُ يَمِينِهِ. فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا. وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا. وَأَمَّا مَنْ أُوِّيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ. فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا. وَيَصْلَى سَعِيرًا. إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا» (الإنشقاق: ٧-١٣).

في هذه الآيات تتقابل صورتان حاضرتان، صورة الفائز الذي يحمل كتابه يمينه، وهو فرحان، تقابلها صورة الخاسر الذي أُوِّيَ كتابه من وراء ظهره، وهو مشاعر الندم والحسرة أحاطت عليه. أخذ الكتاب باليمين و بالشمال ومن وراء الظهر قد يكون حقيقة مادية، و قد يكون تمثيلاً لغويّاً جارياً على إصطلاحات اللغة العربية من تعبيرهم عن وجهة الخير باليمين ووجهة الشرّ بالشمال أو من وراء الظهر... وسواء كان هذا أو ذاك فالمدلول واحد، وهو لا يستدعي جدلاً يضيع فيه جلال الموقف (قطب، نفس المصدر: ج ٦/٣٨٦٧).

تبدأ الآيات بتصوير المشهد الأول، والذي هو مشهد الناجي في ذلك اليوم العصيب وهو مسرور ويرجع إلى اهله في الجنة. وبعدها تنتقل لتصوير ما يقابله، وهو مشهد ذلك الخاسر المتحسر، وهو عرف أنه مؤاخذ بسيئاته و أنّ مصيره إلى العذاب.

إنّ القيمة الفنية للمقابلة تكمن فيما يحدثه التضاد من أثر متميز في الدلالة على صور ذهنية ونفسية متعاكسة يوازن فيما بينها عقل القارئ و وجدانه فيتبين ما هو حسن منها و

يفصله عن ضده. (مطلوب، ١٩٨٢: ٤٤٣) فإننا نرى في هذه الآيات يخلق القرآن الكريم صورة أدبية جميلة وهي كل الوسائل التي يحاول بها الأديب نقل فكرته وعاطفته إلى قرائه أو سامعيه (الشايب، ١٩٦٤: ٢٤٢).

٢.٦ التقابل و الإغراء

تداعي الدلالات متقابلة، مثيرة في النفس صورة الشي وضده (نهر، نفس المصدر: ٥٥٨) حينما نتأمل في القرآن الكريم، نجد شواهد كثيرة تطابق مع هذا النوع من التقابل. يمكن أن نعتبر قوله تعالى: «أَمَّا مَنْ طَغَىٰ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ» (النازعات: ٣٧-٤١) من هذا النوع. فالتقابل في هذه الآيات وقعت بين الذين تمردوا على أمر الله وفضلوا الحياة الدنيا على الآخرة، والذين آمنوا ونهوا النفس عن الهوى ومصير كل جماعة منهم ومأواهم. فقد صرح القرآن الكريم بأن مأوى الذين طغوا هي الجحيم ومأوى الذين آمنوا واتقوا الله هي الجنة. فدرجات المؤمنين غير أمكنة الكافرين وهكذا تداعي المعاني التقابلية بوضع قيم الدنيا كلها في ميزان الله إلى جانب الآخرة.

وهناك حرية إنسانية تليق بتكريم الله للإنسان. تلك هي حرية الإنتصار على هوى النفس و الإنطلاق من أسر الشهوة، والتصرف بما في توازن تثبت معه حرية الإختيار والتقدير الإنساني. وهنالك حرية حيوانية، هي هزيمة الإنسان أمام هواه، و عبوديته لشهوته، وإنفلات الزمام من إرادته. وهي حرية لا يهتف بها إلا مخلوق مهزوم الإنسانية مستعبد يلبس عبوديته رداءً زائفاً من الحرية! إن الأول هو الذي ارتفع وارتقى و تهيأ للحياة الرفيعة الطليقة في جنة المأوى. أما الآخر فهو الذي ارتكس وانتكس وتهيأ للحياة في درك الجحيم حيث تهدر إنسانيته، ويرتد شيئاً توقد به النار التي وقودها الناس - من هذا الصنف - و الحجارة! وهذه تلك هي المصير الطبيعي للارتكاس والارتقاء في ميزان هذا الدين الذي يزن حقيقة الأشياء (قطب، نفس المصدر: ج٦ / ٣٨١٩).

في الحقيقة في هذا التقابل بين الفئتين، يفضّل الله تعالى مصير الإنسان و يحذره و يذكره من عواقب أمره. يثير هم الإنسان بأن يختار سبيلاً مستقيماً يؤدي إلى السعادة.

التقابل في النص القرآني يقع بين معانيه كما يقع بين ألفاظه، وهو بين الألفاظ يزيد لذة وإثارةً وبين المعاني يزيد قوّةً ووضوحاً، كما يضيفي عليها روعةً وجمالاً، فحازم القرطاجني يرى أنّ «للنفوس في تقارن المتماثلات و تشافعها و المتشابهات والمتضادات وما جرى مجراها تحريكاً وإيلاعا بالانفعال إلى مقتضى الكلام لأن تناصر الحسن في المستحسنين المتماثلين والمتشابهين أمكن من النفس موقعا من سنوح ذلك لها في شيء واحد. وكذلك حال القبح. وما كان أملك للنفس وأمكن منها فهو أشدّ تحريكاً لها. ولذلك أيضا مثلول الحسن إزاء القبيح أو القبيح إزاء الحسن مما يزيد غبطة بالواحد وتخلية عن الآخر لتبين حال الضد بالمثول إزاء ضده. فلذلك كان موقع المعاني المتقابلات من النفس عجباً» (القرطاجني، ١٩٨١: ٤٤-٤٥).

٣.٦ التقابل و الموسيقى

إنّ علم الدلالة هو ذلك الفرع الذي يدرس الشروط الواجب توافرها في الرمز حتى يكون قادراً على حمل المعنى، كما يعني علم الدلالة أيضاً بالبنية الدلالية للغة من حيث العلاقات الترابطية ومن ثم يوجد نوعين من علم الدلالة يتصلان ببعضهما إتصلاً وثيقاً، فنوع يتعلّق بالبنية التكوينية الدلالية، وآخر يتعلّق بمعنى هذه البنية. فإذا كان ذلك كذلك، فإنّ بعض المحسنات قائمة على توظيف المعنى من حيث الإيقاع و التنعيم الصوتي و الموسيقى الذي ينتج هذه المحسنات في الجملة الفنية شعراً ونثراً، معتمدة في ذلك على التقابل و التوازي المعنوي عن طريق التضاد بين الالفاظ و الجمل، وما ينتج عن ذلك من أحيلة وصور شعريه مصحوبة بالتوزيع و التنسيق الصوتي واللفظي الايقاعي فيكون التحسين تحسناً في اللفظ والمعنى معاً. (حسن الشيخ، ١٩٩٩: ٥٠) فلذلك يلعب التقابل دوراً هاماً في إحداث نوع من التوازي الذي تتمّ أجزاء كل جملة في هذا البناء على نحو معين فتؤدي إلى نوع من الإيقاع المنسجم الذي يساعد على تكوين التعبير كلّه.

والتقابل بأثره الإيقاعي لا يأتي وحده، بل يأتي متضافراً مع إيقاع التشابه، فيولدان أثراً قوياً في النفس، وقد أشار إليهما حازم القرطاجني (ت ٦٨٤هـ) بقوله: «فإنَّ للنَّفوسِ في تقارن المتماثلات و تشافعهما و المتشابهات و المتضادات وما جرى مجراها تحريكاً و إيلاعا بالإنفعال إلى مقتضى الكلام؛ لأنَّ تناصر الحسن في المستحسنين المتماثلين و المتشابهين أمكن من النفس موقعاً من سنوح ذلك لها في شيء واحد، وكذلك مثول الحسن إزاء القبيح أو القبيح إزاء الحسن ممَّا يزيد غبطة بالواحد و تخلياً عن الآخر لتبيين حال الضد بالمثل إزاء ضده، فذلك كان موقع المعاني المتقابلات من النفس عجيباً...» (القرطاجني، ٢٠٠٧: ٤٤-٤٥).

نجد التقابل في سورة الإنفطار مثل قوله تعالى « إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ » (١٣-١٤) وقد حملت هذه الآيات إضافة إلى التقابل، صفة الترصيع ويظهر الإنسجام في هاتين الآيتين من خلال «تتبع الأصوات في مواقعها، والنظر إلى الصوت ومقابله، فيبدو في الآية الكلمات القصيرة وبعض الكلمات الطويلة، كما تتمثل فيها الحركات القصيرة ومعها الحركات الطويلة، ونلاحظ في ذلك نوعاً من التوازن» (عثمان، ٢٠٠١: ١٠).

و من السمات الواضحة للغة القرآنية هي تكرر القلب الصوتي للتعبير الذي توضع فيه الألفاظ في نظام دقيق بحيث نجد في تكرر هذه القوالب للأذن لذّة و متعة قريبة للنفس، وهذا التكرار يجعله سريع العلوق بالقلب، سهلاً في حفظه وترداده (جمعة، ٢٠٠٣: ١٦٥). ومن مثلها هذه الآيات القرآنية التالية: «إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ» (الانفطار: ١٣-١٤)

يتحدث كمال عبد أحمد غنيم عن النعمة الموسيقية فيقول: «إنَّ لها أثراً عميقاً في وجدان الناس، ودوراً عظيماً في إثارة مشاعرهم، ونقلهم إلى إحواء جديدة، و قدرة فائقة على مخاطبة إرواحهم وعقولهم، حيث تكمن هذه الخاصية في الموسيقى التي تنساب إنغامها بألحان ذات دلالة توقظ إحساس المتلقي وتخلق لديه ملامح عالم النص، وتشعره بالمتعة الفنية التي يتذوقها من خلال تجاوب النغم مع الفكرة، وما لذلك من تأثيرات داخلية» (أحمد غنيم، ٢٠٠٤: ٣٠٣).

٣.٦ التقابل و تداعي المعاني

لتداعي المعاني أسباب و عوامل عدّة، من أهمّها التقابل، لأنّ التقابل لا ينفكّ من دلالة الإلتزام ودلالة الإلتزام لا تنفكّ من تداعي المعاني، لأنّ فيه إستحضار صورة المعنى في الذهن بغير اللفظ الموضوع له، وهذا هو تداعي المعاني، ومن روعة أثر تداعي المعاني في التقابل هو سير المعنى من المتكلم إلى المخاطب قبل سيره بلفظه الموضوع له ثمّ إعادة المعنى إلى المخاطب باللفظ الموضوع له.

ومن أجمل ما في المقابلة من قيمة بلاغية، تحقيق ما ينتظره السامع عندما ينتهي الطرف الأول من المقابلة فعلى سبيل المثال في قوله تعالى: « و جعلنا الليل لباساً» (نبأ: ١٠) يتوقع القارئ أو السامع أن يكون في مقابل ذلك «وجعلنا النهار معاشاً» (نبأ: ١١) وتؤدي المقابلة دوراً كبيراً في الأسلوب القرآني، فهي من الأساليب القادرة على مخاطبة قوى النفس جميعها، وذلك بتحريك قوة العقل، وتنشيط قوة الشعور، وتفعيل غريزة حبّ الاستطلاع، وذلك لتلبية حاجات النفس المتطلعة دائماً إلى المتعة الوجدانية، والنكتة العقلية، والراغبة في الأسلوب الجميل، والمعنى العميق.

و المقابلة بإنسجامها مع بقية الأساليب- و بخاصة أسلوب التصوير- تضيف جمالاً فنياً خاصاً على التعبير، ومنشأً هذا الجمال وجود الصور المتقابلة، والألوان المتباينة، والنماذج البشرية المختلفة، والحقائق الدينية المتناقضة، وغير ذلك من الأشياء المتضادة في طبائعها وأشكالها.

إنّ سرّ بلاغة كل من الطباق والمقابلة إنّما هي تداعي المعاني، فالضد أو المقابل يجلب إلى الذهن ضده، أو مقابله .. فإذا كتب الأديب أو نطق، أحد المتساندين وقع مقابلة في ذهن متلقي في الأدب، قبل أن يقرأه أو يسمعه، وبهذا يتحول متلقي الأدب إلى مرسل له التقابل في الواقع نوع من العلاقة بين المعاني، بل و ربما كانت أقرب إلى الذهن من أية علاقة أخرى، فمجرد ذكر معنى من المعاني، يدعو ضد هذا المعنى إلى الذهن، فعلاقة الضدية من أوضح الأشياء في تداعي المعاني (أنس، ٢٠٠٣: ٢٠٧).

في الحقيقة إنّ القرآن الكريم في تقابلاته الجمالية « يجعل الجمال الفني أداة مقصودة للتأثير الوجداني فيخاطب حاسة الوجدان الدينية بلغة الجمال الفنية» (قطب، ١٩٦٦: ١٤١).

٧. نظرة إحصائية

بما أنّ علم الإحصاء علم تطبيقي لا يكاد يستغني عنه باحث في أي مجال من مجالات الحياة. ودلالات نتائجه يمكن أن تفيد في إيضاح وتأكيد كثير من الظواهر وهو يساعد في إستنتاج علاقات ودوال تغيب عن الملاحظة عادة فلذلك في ضوء دراستنا للجزء الثلاثين نورد المقابلات المستعملة في الجدول الآتية:

١	١١-١٠	النبا	مقابلة إثنين بإثنين
١	٢٩	التازعات	مقابلة إثنين بإثنين
٢	٤١-٣٨، ١٠-٥	عبس	مقابلة إثنين بإثنين
٢	١٨-١٧، ١٣-١٢	تكوير	مقابلة إثنين بإثنين
١	١٤-١٣	انفطار	مقابلة إثنين بإثنين
٢	١٨ و ٧، ٣-٢	مطففين	مقابلة إثنين بإثنين
١	١٣-٧	انشقاق	مقابلة ثلاثة بثلاثة
١	١٨-١٠	بروج	مقابلة إثنين بإثنين
١	١٠-٢	غاشيه	المقابلة ثلاثة بثلاثة
١	١٦-١٥	فجر	مقابلة إثنين بإثنين
١	١٩-١٧	بلد	مقابلة إثنين بإثنين
١	١٠-٩	شمس	مقابلة إثنين بإثنين
١	٢-١	ليل	مقابلة إثنين بإثنين
١	١٠-٥	=	مقابلة أربعة بأربعة
١	٧-٦	بينه	مقابلة إثنين بإثنين
١	٨-٧	زلزله	مقابلة إثنين بإثنين
١	٨-٦	قارعه	مقابلة إثنين بإثنين

١	٣٧	نبأ	التقابل الإصطلاحى
٢	٢٥،٤٦	نازعات	التقابل الإصطلاحى
١	٢٢-٢١	عبس	التقابل الإصطلاحى
١	٥	انفطار	التقابل الإصطلاحى
١	١٣	بروج	التقابل الإصطلاحى
١	١٢-١١	طارق	التقابل الإصطلاحى
١	١٣	اعلى	التقابل الإصطلاحى
١	٧	=	التقابل الإصطلاحى
١	٣	فجر	التقابل الإصطلاحى
٢	١٣،٣	ليل	التقابل الإصطلاحى
١	٤	ضحى	التقابل الإصطلاحى
٢	٦،٥	شرح	التقابل الإصطلاحى
١	٢	قريش	التقابل الإصطلاحى
١	٦	الناس	التقابل الإصطلاحى

لاحظنا من خلال إحصاؤنا للمقابلة، إنَّ المقابلة الإصطلاحى وردت في الجزء الثلاثين ١٧ مرة بينما انَّ تقابل الجملة ورد عشرين مرة.

للتطبيق (التقابل الإصطلاحى) فنا بديعيا خالصا له تأثيره الخاص المتميز، ويتجلى هذا التأثير في أنه يجمع بين الأضداد يخلق صوراً ذهنية متعاكسة يوازن فيما بينهما عقل القارئ ووجدانه فيتبين ما هو حسن منها و يفصله عن ضده، ومن هنا فإن هذا الفن البديعي يستوي بحد ذاته معرضاً للمعاني الذهنية والنفسية والعقلية المتنافرة فتترك في الشعور آثاراً عميقة بأسلوبها الموازن المقارن (مطلوب، ١٩٨٢: ٤٤٣).

و بهذا الفن البديعي قد أضاف بصمة بلاغية بديعية ذات طابع له تأثيره الخاص في الجزء الثلاثين من القرآن الكريم، كما استطاع أن يخلق لنا صوراً متعاكسة لها آثار في ذهنية القارئ ونفسيته ووجدانه.

لقد كان التقابل العقدي المحور الأساس والموضوع الأكثر أهمية بين موضوعات المقابلة القرآنية وبلاغتها إنما تكون في «وضع الحد الفاصل بين الكفر والشرك من ناحية وبين الإيمان والحق والهدى من ناحية أخرى» (حمدة، ١٩٨٥ : ١١٥٠).

و بهذا توّقت العلاقة بين الدلالة و البلاغة يجمعهما التركيب و التوليد والنص، فإن كان (الطباق و المقابلة) باباً من أبواب البديع ومحسناً معنوياً عند البلاغيين القدماء، فإنه عند الدلالين أحد أنواع نظرية العلاقات، وإبداع من إبداعات التوليد الدلالي، ولا يقف جمال التقابل الدلالي على الصورة اللفظية؛ بل له قيمته المعنوية في النص، حيث تجد تلك الحركة العقلية العنيفة في نظم من المفردات و الجمل المتقابلة، تتقارب ثم تتباعد في عرض حركي سريع ومتميز بني على قوة إدراك العقل للشيء بضده، فأنتج بذلك قوالب لفظية جميلة.

٨. النتائج

و تشير نتائج هذا البحث الى النقاط التالية:

إنّ من أبرز المعطيات العظيمة التي تجلت من خلال توظيف التقابلات الدلالية في جزء الثلاثين، تثبيت المفاهيم والأفكار، التي اشتملت عليها التقابلات بانواعها المختلفة، وحملتها الآيات المباركة من مقاصد وأهداف إرشادية، وعقدية؛ تلك المقاصد التي قدمتها السور بأطباق من جماليات اللفظ وتناسب المعاني، ومن خلال الطباق والمقابلات، بما يتناسب والإعجاز البياني لكتاب الله العزيز - عزّ اسمه -.

إنّ أسلوب التقابل عند القدماء لم يخرج عندهم عن إطار الطباق والمقابلة، كما كان الغرض من وضعه تحسين الكلام. وإنّ المعاصرين في نظرهم إلى هذا الأسلوب، لم يأتوا بجديد وفكرة التحسين والحسن البديعي هي المسيطرة على بحث أصحاب هذه الوجهة.

إنّ دراسة التقابل من الناحية الدلالية كان أول ظهور لها في العصر الحديث عند الغربيين، والتقابل يعتبر في الدراسات الدلالية الحديثة ظاهرة دلالية مستقلة كالترادف وغيرها.

التقابل لم يكن أسلوبياً زخرفياً، زائداً، بل جاء لأغراض دلالية، منسجماً مع السياق النصي، غير أجنبي ولا دخيل عليه. يؤدي التقابل دوراً كبيراً في خلق المشاهد والتصوير وبهذا يؤثر أثراً بالغاً في المتلقي لأنه يوصل مفاهيم القرآن بصورة مجسدة. وأيضاً يساعد التقابل في احداث نوع من التوازي الذي ينتج نوعاً من الإيقاع والموسيقى.

المصادر و المراجع

القرآن الكريم

ابن المعتز (٩٨٢م). كتاب البديع، اعتنى بنشره إغناطيوس كراتشوفوسكي، ط ٣، بيروت: دار المسيرة.
ابن معطى، يحيى (٢٠٠٣م). البديع في علم البديع، تحقيق محمد مصطفى أبو شارب، ط ١، الإسكندرية: دار الوفاء لندنيا الطباعة و النشر.

ابن منظور (٩٩٧م). لسان العرب، بيروت: دار صادر.

الأزهري، محمد بن أحمد، (١٤٢١ هـ. ق). تهذيب اللغة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١.
أبو خضر، سعيد جبر محمد (٢٠٠٤م). التقابلات الدلالية في العربية و الانجليزية، ط ١، الأردن: عالم الكتب الحديث.

احمد مختار، عمر (٩٨٨م). علم الدلالة، القاهرة: عالم الكتب.

أحمد غنيم، كمال (٢٠٠٤م). عناصر الابداع الفني في شعر أحمد مطر، قم: منشورات ناظرين.

أنس، ابراهيم (٢٠٠٣م). في اللهجات العربية، مكتبة الانجلو المصرية.

بجيري، سعيد حسن (٩٩٧م). علم لغة النص، ط ١، لبنان: مكتبة لبنان ناشرون.

الجوهري (١٤٠٤ هـ. ق). الصحاح، تحقيق أحمد عبدالغفور عطار، ط ٣، بيروت: دار العلم الملايين.

الجنابي، احمد نصيف (بلاتا). ظاهرة التقابل في علم الدلالة، الجامعة المستنصرية: كلية الآداب.

حسن الشيخ، عبدالواحد (٩٩٩م). البديع و التوازي، ط ١، مصر: مكتبة و مطبعة الإشعاع الفنية.

الحموي ابن حجة (٩٨٧م). خزانة الأدب و غااية الأرب، شرح عصام شعيتو، بيروت: دار و مكتبة الهلال.

الخالدي، صلاح عبد الفتاح (٩٨٨م). نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، الجزائر: شركة الشهاب.

الداية، فايز (٩٩٦م). علم الدلالة العربي، ط ٢، دمشق: دار الفكر.

٧٠ دراسة تناسب السياق في التقابلات الدلالية في الجزء الثلاثين من القرآن الكريم

الرازي، أبو بكر (١٩٩٠م). مختار الصحاح، ضبط وتخريج و تعليق مصطفى ديب البغا، ط٤، الجزائر: دارالهدى.

الرازي، محمد بن عمر بن الحسين بن علي (١٩٩٠م). التفسير الكبير، ط١: بيروت، دارالكتب العلمية.

الراغب الاصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد (بالاتا). مفردات ألفاظ القرآن، ط١، بيروت: دار القلم.

السامرائي، فاضل صالح (٢٠٠٦م). التعبير القرآني، ط٤، عمان: دار عمار.

السامرائي، فاضل صالح (٢٠٠٢م). على طريق التفسير البياني، الإمارات العربية المتحدة: جامعة الشارقة.

السكاكي، أبو يعقوب (بالاتا). مفتاح العلوم، بيروت: دار الكتب العلمية.

الشايب، أحمد (١٩٦٤م). أصول النقد الأدبي، ط٧، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.

الشيخ، عبد الواحد حسن (١٩٩٩م). العلاقات الدلالية في التراث العربي دراسة تطبيقية، ط١،

الإسكندرية: مكتبة الإشعاع.

العبيدي، عبد الكريم محمد حافظ (١٩٨٩م). ظاهرة التقابل الدلالي في اللغة العربية، الجامعة المستنصرية

كلية الآداب.

العسكري، ابوهلال (١٩٨٦م). كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق علي محمد الجاوي و محمد

أبو الفضل إبراهيم، بيروت: منشورات المكتبة العصرية.

عيد، رجاء (بالاتا). فلسفة البلاغية بين التقنية و التطور، الاسكندرية: منشأة المعارف.

عبدالمطلب، محمد (بالاتا). العلامة و العلامة (دراسة في اللغة و الأدب)، الطبعة الأولى، القاهرة: الوطن

العربي للنشر و التوزيع.

عبدالمطلب، محمد (١٩٩٧م). البلاغة العربية قراءة أخرى، ط١، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، لو نجمان:

الشركة المصرية العالمية للنشر.

غريب عّلام، عبد العاطي (١٩٩٧م). دراسات في البلاغية العربية، بنغازي: منشورات جامعة قار يونس.

غيزي، عبد العلي الود، (٢٠٠٠م). اللغة والتدين والهوية، نيامي: مطبعة النجاح الجديدة.

الفراهيدي، أبو عبد الرحمان الخليل بن أحمد (بالاتا). كتاب العين، تحقيق مهدي المخزومي و إبراهيم

السامرائي، دار مكتبة الهلال.

القرعان، فايز عارف (بالاتا). التقابل الدلالي، الأردن: جامعة يرموك.

القرطاجني، حازم (١٩٨١م). منهاج البلغاء و سراج الأدباء، تقديم و تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، ط٢،

بيروت: دار الغرب الإسلامي.

القزويني، الخطيب (بالاتا). الإيضاح في علوم البلاغية، اعتنى به و راجعه عماد بسيوني زغلول، ط٣، بيروت:

مؤسسة الكتب الثقافية.

محمد صالح شريف عسكري وآخرون ٧١

القيرواني، أبو الحسن بن رشيق (١٩٧٢م). *العمدة في محاسن الشعر وأدبه و نقده*، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط٤، بيروت: دار الجليل.

قطب، سيد (١٤١٢هـ.ق)، *في ظلال القرآن*، ط ١٧، بيروت: دار الشروق.

قطب، سيد (١٩٦٦م). *التصوير الفني في القرآن الكريم*، القاهرة.

المرسى، أبو الحسين علي بن إسماعيل بن سيدة (٢٠٠٠م). *المحكم والمحيط الأعظم*، تحقيق عبد الحميد هنداوي، بيروت: دارالكتب العلمية.

مصطفى إبراهيم / الزيات، أحمد / حامد عبد القادر . *محمد النجار، المعجم الوسيط تحقيق / مجمع اللغة العربية، دت.*

مطلوب، أحمد (١٩٨٠م). *البلاغة العربية المعاني والبيان والبديع*، ط٢، بغداد: معهد الإنماء العربي.

مطلوب، احمد (١٩٨٧م). *معجم المصطلحات البلاغية و تطورها*، العراق: مطبعة المجمع العلمي العراقي.

مطلوب، أحمد/البصر، كامل حسن (١٩٨٢م). *البلاغة و التطبيق*، ط١، الجمهورية العراقية: وزارة التعليم العالي والبحث العلمي.

منقور، عبد الجليل (٢٠٠١م). *علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي*، دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب.

لايتز، جون (١٩٨٠م). *علم الدلالة*، ترجمة: مجيد المشطة وآخرون ، جامعة البصرة: كلية الآداب.

نحر، هادي (٢٠٠٧م). *علم الدلالة التطبيقي في التراث العربي*، تقدم علي الحمد، ط١، أريد الأردن: دار الأمل للنشر و التوزيع.

المقالات و الرسائل:

جمعة، ابراهيم (٢٠٠٣م). *الإيقاع في القصة القرآنية*، مجلة *موقف الأدبي*، اتحاد الكتاب العرب، العدد ٣٧٩.

حمدة، محمد علي (١٩٨٥م). *القرآن الكريم و استمرارية إعجازه*، مجلة *الثقافية*، العدد ٩٠٩. عبد المنعم ياسين، وسن (٢٠٠٩م). *ثنائية التقابل الصوري بين المؤمن و الكافر*، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، العدد ٩١، صص ٣٣٣-٣٥١.

عثمان، أسامة عبد المالك إبراهيم (٢٠٠١م). *ظواهر أسلوبية و فنية في سورة النحل*، جامعة النجاح الوطنية، رسالة، ماجستير.